العقلية المصرية من « الإيداع » الى « الإبداع »

دكتور / محمد المفتى*

اذا كانت مكانة الأمم تقدر بما تمتلكه من ثروات أو أموال ، فالثروات تنفذ والأموال قد تنخفض قيمتها – مالم تستثمر – واذا كانت تقدر بما فى حوزتها من تكنولوجيا حديثه ، فالحديث يتقادم مالم يطور الى الأحدث ولكن من الذى يستثمر ويطور؟ إنه الانسان .

وبناء على ذلك فالأمم الذكية تعمل جاهدة على تنمية عقل الإنسان ليفكر ويبدع ويطور الموجود ويبتكر الجديد ، فالعقول هى الثروات الحقيقية فى عصرنا هذا فهى لاتنفذ ولاتتقادم واستثمارها يؤدى دائما الى التقدم .

ومن المؤكد أننا – فى ضوء المتغيرات القومية والعالمية – فى أمس الحاجة الى تنمية عقلية مصرية تتسم بالعلمية فى التفكير وبالقدرة على الابداع ، ولعل هذه هى مسئولية التعليم بالدرجة الأولى لأنه الجهد المقصود والتوجه المنظم نحو تنمية عقول النشء الذين سوف يتولون المسئوليات فى الغد القريب .

وهناك فى الوقت الحاضر محاولات مستمرة لتطوير التعليم وتوجيهه نحو تنمية عقلية مفكرة ومبدعة ، وهذه المحاولات انصبت على تطوير المناهج الحالية دون التعمق الكافى – أو دونه على الطلاق – فى دراسة البعد التاريخى لنمو العقلية المصرية وتطورها، أو فى الدور الذى لعبته المؤسسات التعليمية فى تشكيل هذه العقلية .

فالعقلية المصرية قد نشأت ونمت فى كنف مايطلق عليه « ثقافة الذاكرة » لقرون طويلة كاد النشاط العلمى خلالها يقتصر على « النقل » و « الحفظ » – النقل إما عبر الزمان لتراث السلف الذى كان يلخص ويحفظ ، أو النقل عبر المكان لعلوم الغرب ولعل بدايته كانت مع قدوم الحملة الفرنسية.

وكانت العقول فى الحالتين تستقبل « المضمون » وتحفظه دون ادراك العلاقات الكامنة داخله ، ودون الوعى بمنهج التفكير الذى نسج هذا المضمون وشيد بنيته .

وظلت الحياة العلمية تسير على هذا المنوال لقرون طويلة ، فالمضمون يبسط ويلخص ، ويحفظ فى « أرشيف » العقول لاستدعائه عند الحاجة ، وهكذا تعودت العقول على «الايداع» (بالياء) .

---

* أستاذ المناهج وطرق تدريس الرياضيات بتربية عين شمس

ولاننكر أنه عبر الزمان واللآن برزت عقول مصرية قادرة على " الابداع "(بالباء) فى مجالات متنوعة ، ولكنها حالات فردية نادرة أو استثناءات ظهرت ثم ذابت وسط " ثقافة الذاكرة " ولم تؤثر فيها بل ربما تأثرت بها على المدى البعيد .

أما المؤسسات التعليمية فقد عكست منذ زمن بعيد هذا النشاط العلمى داخلها وظهر فى ممارسات المعلم وفى المناخ التعليمى العام . فأصبح التلخيص والتلقين والحفظ أسلوبا للدراسة. التلخيص والحفظ إما لتراث السلف أو لعلوم منقولة عن دول أخرى ، ووظفت كل الممارسات داخل قاعات الدرس وفى المؤسسات التعليمية لاتقان التلخيص والحفظ وتدريب العقول على " الايداع " (بالياء) . والاستدعاء عند الحاجة ، وبرعت العقول فى هذا وأتقنت تطبيق ما تحفظه على مواقف نمطية فى قطاعات مختلفة من العملوالحياة.

ولما كانت النمطية والرتابة ظاهرتين من مظاهر " ثقافة الذاكرة " تساعدان على ثبات الأمور، فلم يتغير أسلوب الدراسة رغم محاولات تطويره ، وظل التلخيص والحفظ والتطبيق النمطى هو النشاط السائد بالرغم من ظهور مواقف ومشكلات غير مألوفة فى قطاعات التطبيق وقفت أمامها العقول حائرة متسائلة .

ومع ظهور مثل هذه المشكلات ، كان يكتفى باستدعاء « صناع العلوم » من الدول التى نقلنا العلم عنها لحل تلك المشكلات بدلا من إعادة النظر فى مناهج التعليم ، وأسلوب الدراسة لمعرفة لماذا وقفت عاجزة عن تنمية عقول مبدعة قادرة على مواجهة مثل هذه النوعية من المشكلات واقتراح حلول غير تقليدية لها .

وفى اعتقادى أن عدم القدرة على الوصول الى حل تلك المشكلات هو أننا نقلنا « مضمون » العلوم دون الوعى " بمنهج التفكير " الكامن فى كل منها ، وكان نتيجة هذا أن العقول تعودت على الحفظ و" الايداع" (بالياء) ولم تتعلم التفكير و" الابداع" (بالباء).

واذا سلمنا بأن العقل " والد الثقافة ووليدها " فالعقل الذى تعود على " الايداع " (بالياء) يفرز " ثقافة ذاكرة " وهذه بدورها تورث العقل خصائصها وسماتها وتصبغه بطبيعتها ليعمل هذا العقل بدوره على بقائها ويضمن استمرارها .

ويمكن أن يستمر هذا التفاعل المتبادل الدائرى لفترات طويلة من الزمن مالم يغير أحد عنصرى التفاعل (العقل والثقافة) أو يطور .

ومن وجهة نظرى أن العبور بالعقلية المصرية من حالتها الاستاتيكية التى تتسم "بالايداع" (بالياء) الى حالة دينامية تتسم " بالابداع " (بالباء) هو إيقاف هذا التفاعل غير الصحى عن طريق تنمية عقلية مصرية مبدعة .

وهذا يتطلب بالدرجة الأولى دراسة مراحل نمو هذه العقلية عبر التاريخ ، وتحديد المؤثرات والظروف التى عوقتها على " الايداع " (بالياء) ، ولم توجهها نحو " الابداع " (بالباء) . ثم يبدأ تصحيح المسار .

وبالرغم من أن تنمية عقلية مصرية مبدعة هى مسئولية التعليم بالدرجة الأولى ، إلا أن هذا يتطلب جهودا علمية على المستوى القومى تشترك فيها الأسرة ببيئتها المنزلية والتعليم بمؤسساته النظامية وبيئته المدرسية ، والاعلام بأجهزته الرسمية ، والمجتمع بمناخه العام ، بحيث تتكامل الجهود وتتسق الخبرات وتتسق وتوجه نحو بناء وتنميه عقلية مصرية قادرة على أن تبدع فتعبر بنا من جمود وحدود " ثقافة الذاكرة " الى مرونة وآفاق " ثقافة الابداع " .